ظاهرة التدخين في الكتابة التاريخية في العهد العثماني
مخطوط "محدد السنان" لابن الفكون أنموذجا

طـــوبال فاطمة الزهراء*

ملخـــص

أنتجت عدد من الأسر الجزائرية في العهد العثماني مؤلفات ذات قيمة تاريخية و من بينها مخطوط " محدد السنان في نحور إخوان الدخان" لمؤلفه "عبد الكريم الفكون" وهو عبارة عن رسالة خصصها المؤلف لظاهرة التدخين التي كانت منتشرة بكثرة في تلك الفترة.[1]

و مما لا شك فيه أن هذا المخطوط هام جدا من حيث قيمته التاريخية لأن كاتبه عايش جل الظواهر الاجتماعية التي كانت سائدة آنذاك ودونها كدليل مادي ومعنوي لتحديد محطة تاريخية تعكس البنية الفوقية للمجتمعات التقليدية في العهد العثماني، وهو مصدر مهم جدا يعتمد عليه الباحث في تدوين الوقائع و الاستشهاد بها وتوظيفها في الكتابة التاريخية.

وبناءا على ذلك، في هذه الورقة سنعمل على تحديد الخصائص العامة للكتابات التاريخية في العهد العثماني من خلال دراسة أحد أهم النماذج التي أنتجها عبد الكريم الفكون، والهدف من دراسة هذا المؤلف هو إثبات كيف تمكنت هذه الأسر العلمية من خلال هذه المحطات التاريخية أن تضع الأسس الأولى لكتابة التاريخ المحلي للجزائر في الفترة العثمانية بأقلام علمائها.

وفي ضوء ما تقدم سأحاول جاهدة أن أجيب عن الإشكالية المطروحة وهي: ما هي المنهجية التي استعملها ابن الفكون في علاجه لظاهرة التدخين من خلال كتابه " محدد السنان" ؟

الكلمات المفتاحية: البيوتات و الأسر العلمية، الكتابة التاريخية، العهد العثماني، آل الفكون، الحياة الاجتماعية،

Abstract

A number of Algerian families in the Ottoman period produced works of historical value, including a manuscript entitled "Al-Sinan in Nahour Ikhwan al-Dukhan" by Abdel-Karim al-Fakun, a letter dedicated to the phenomenon of smoking, which Undoubtedly, this manuscript is very important in terms of its historical value because its .was widespread in that period author lived through all the social phenomena that existed at the time as a material and moral evidence for the identification of a historical station that reflects the superstructure of traditional societies in the Ottoman era. And citation Accordingly, in this paper we will work on determining the general characteristics of the .and use in historical writing historical writings of the Ottoman period by studying one of the most important models produced by Abdel-Karim Al-Fakun. The aim of this study is to prove how these scientific families managed, To write the local history of Algeria in the In the light of the above, I will try hard to answer the problem posed is: What Ottoman period by the words of its scientists is the methodology used by Ibn al-Faqoon in his treatment of the phenomenon of smoking through his book "Determined ?"Sunan

Keywords: Houses and scientific families, Historical writing, Ottoman era, Al Fakon, Social life, Smoking phenomenon

* - أستاذة بجامعة وهران-1- كلية العلوم الإنسانية و الحضارة الإسلامية toubal.zhor81@gmail.com

[1] - أنظر الملحق رقم 1

مقدمة

في القرن 16م انتشرت ظاهرة التدخين بشكل رهيب في المجتمع الجزائري، أدت إلى نشوب خلافات بين كبار العلماء وقادة الحركات الصوفية حول حكم تحريمه، فقد أودت إلى حدوث انشقاقات حادة بينهم وأسفرت عن بروز حركة تأليفية واسعة حول هذه الظاهرة تجسدت في مؤلفات الصوفية والأدباء، وتعددت المصنفات الفقهية حول هذا الشأن، إذ كتب عنه محمد بن سليمان صاحب كتاب كعبة الطائفين وعبد القادر الراشدي في "تحفة الإخوان في تحريم الدخان" و كتب عنه أحمد المقري صاحب كتاب نفح الطيب وكتبت عنه الأسر العلمية الجزائرية و على رأسهم ابن الفكون في "محدد السنان" ولم ينتهوا فيه إلى رأي واحد إلى أن خلص عبد الغني النابلسي في كتابة رسالته 1143هـ " الصلح بين الإخوان في حكم إباحة الدخان".

خلال هذه الفترة التاريخية (ق16م) برزت شخصية ابن الفكون بقسنطينة ، إذ منذ التواجد العثماني بها لم تكن الأوضاع مستقرة آنذاك حيث جاء العثمانيون بالنرجيلة[2] وشاع استعمال السبسي[3] للدخان و نحوه، وعرف عن بعض علماء المشارقة أنهم كانوا متساهلين في إباحة الدخان بينما كان علماء الجزائر معارضين و على رأسهم ابن الفكون.

إلا أن الإشكال الذي نحن بصدد معالجته هو كيف نظر ابن الفكون لهذه المسألة ولماذا اعتبرناها نوع من المصنفات التاريخية رغم أن جمهرة الدارسين أجمعوا على دراسة المخطوط من وجهة نظر دينية فحسب؟ فهو مصنف عندهم ضمن العلوم الدينية و النوازل الفقهية؟

ونظرا لهذا التضارب في الآراء جاءت هذه الدراسة، التي أريد أن أتناول بالبحث من خلالها مخطوط " محدد السنان في نحور إخوان الدخان" فقد خصّصه مؤلفه لظاهرة التدخين في القرن 16م وهو هام جدا من حيث قيمته التاريخية لأن كاتبه عايش جل الظواهر الاجتماعية التي كانت سائدة آنذاك ودونها كدليل مادي ومعنوي لتحديد محطة تاريخية تعكس طبيعة سلوكيات المجتمعات التقليدية في العهد العثماني، وهو مصدر مهم جدا يعتمد عليه الباحث في تدوين الوقائع و الاستشهاد بها وتوظيفها في الكتابة التاريخية.

2- لمحة بيوغرافية (ابن الفكون رجل و منهج)

إن ابن الفكون عالم من علماء القرنين 16 و17 الميلاديين وهو عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن يحي الفكون التميمي ولد عام 1580م بقسنطينة، وينتمي إلى إحدى البيوتات العلمية وتسمى بعائلة آل الفكون، إذ كان والده " أبو عبد الله محمد" (1045هـ) فقيها صوفيا وهو إمام خطيب في الجامع الأعظم.

تلقى ابن الفكون على يد والده ومجموعة مشايخ قسنطينة المبادئ الأولية للعلوم الدينية في زاوية العائلة وعكف على تحصيل مختلف العلوم الشرعية و الدينية وكان ذو اطلاع واسع لأمهات الكتب و المخطوطات التي جمعها شيوخ العائلة بمختلف ميادينها الأدبية والفقهية. وقد أجازه علماء عصره ومن بينهم المقري وترجم عن حياته الرحالة المغربي أبي سالم العياشي في " الرحلة العياشية" ولايسعنا المجال للتطرق إلى حياته بالتفصيل.[4]

---

[2]- هي اداة تدخين تعتمد على تمرير دخان التبغ المشتعل بالفحم بالماء قبل استنشاقه.

[3]- هو الأداة التي تستعمل لتدخين مخدر الكيف.

[4]- لمزيد من التفصيل أنظر: أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، لطبعة : الثانية ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م

بيد أنه يبدو جليا من هذا التقديم أن البيئة القسنطينية خلال هذه الحقبة التاريخية كانت قطب جاذب للرحالة وطلبة العلم الوافدين إليها لتلقي العلوم الدينية من العائلة الفكونية من قسنطينة و ضواحيها و من منطقة الزواوة و الجزائر وماجاورها وكذا عنابة و منطقة الزيبان.[5]

لم يكن الفكون من العلماء الذين لازموا بلاط السلطة حيث كان يكره التقرب من الأمراء و مخالطتهم وكان ينعت قضاة السلطة العثمانية بالعجم. وقد أشرف على أوقاف الجامع الكبير، كما تقلد إمارة ركب الحج وحصل على لقب شيخ الإسلام.

إن ابن الفكون من العلماء المتحسسين من السلطة العثمانية الحاكمة بالجزائر في تلك الفترة، وبين سخطه من الأوضاع الإجتماعية التي كانت سائدة في تلك الفترة في كتابه "محدد السنان" حيث أبرز موقف الرعايا لما نهى عن شرب الدخان فقال " اتخذوا قولي هزؤا ولعبا، ورميت عن القوس البعاد عن واصل أو صحب فأمسكت عنان المقال وناديت في الضمير يالله، ولم أزل بين نكد البال وكف اللسان أروم إبداءا مافي الجنان، ببستان البنان، ثم أقول لست من فرسان هذا الشأن حتى أن حرك منه الباعث أجوبة لبعض أهل الزمان من لايراقب مولاه، ولايبالي با اكتسبت يداه بإباحة تناوله و التنكيت على منكره فلهج به من هو على شاكلته، وأذاعه في ناحيته وغير ناحيته"[6]

لابن الفكون أعمال فكرية متعددة منها " منشور الهداية في كشف من ادعى العلم و الولاية" و " فتح المولى في شرح شواهد الشريف بن يعلى" وله أيضا ديوان شعري سماه" سلاح الذليل في دفع الباغي المستطيل" غير أن أهم ماتم تصنيفه في المرتبة الثانية لابن الفكون من المؤلفات هو معالجته الفقهية الجامعة لظاهرة التدخين التي كانت تبدو جديدة وغريبة في تلك الفترة في كتابه" محدد السنان".

أهمية المخطوط

الكتاب عبارة عن رسالة[7] تتكون من 52 ورقة خصصها المؤلف لظاهرة التدخين التي كانت منتشرة بكثرة آنذاك حيث يرد فيها على دعاة حلية شرب عشبة التبغ، وعلى رأسهم العالم المصري الشهير الأجهوري[8] حيث ما شدّ انتباهي في هذه الدّراسة ليس تناول الكتاب أو المخطوط بوصفه تراث مادي يتم دراسته بصفة تقليدية فقط، حيث بدى ينظر إليه على انه مجرد كتاب يتناول بيان الحكم الشرعي في تناول الدخان ويريدون من خلاله معرفة إن كان الدخان حرام يجب تجنبه أو حلال يمكن تعاطيه ، ليس إلاّ.

لكن نظرتي لهذا الرصيد الوثائقي تستجلي الدفين بين طيات صفحاته حول هذه الظاهرة بطريقة تطبعها الدقة والشمولية، دون أن تكون لنا نظرة ضيقة بها مثل المدرسة الوثائقية التي ركزت في كتابة التاريخ على الوثيقة التاريخية بمفهومها الضيق فحصرته في زاوية محدودة النظرة و المنهج واهتمت فقط بسرد الاخبار و الوقائع السابقة ، خاصة أن هذا المخطوط تم استغلاله في مجال العلوم الدينية لاغير، بيد أنه كان يتوجب على الدارسين في علم التاريخ التعامل معه في سياق المدة الزمنية المشار إليها فيه بهد[9]ف رصد مدى تفاعل الفرد الجزائري مع مجاله

---

[5]- أنظر أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، 1998م

[6]- الفكون : محدد السنان، ورقة 49

[7]- لقد وجدت نسخة ثانية من المخطوط في الخزانة العامة بالرباط تعود إلى ناسخها عبد الرحمن التادلي لكن النسخة الحقيقية من المخطوط هي التي تعود إلى الفكون الزواوي القسنطيني 1323ه

[8]- لترجمة وافية حول هذه الشخصية (الأجهوري) أنظر عليان الجالودي، التحولات الفكرية في العالم الاسلامي: أعلام، وكتب ، وحركات، وأفكار من القرن10 إلى 12 هـ، الطبعة الأولى، المعهد العالمي للفكر الإسلامي،2014

[9]

الاجتماعي على أنه "ظاهرة إنسانية" أدت إلى إحداث تقاليد جديدة في مجتمع الجزائر العثمانية إذ تمكن أصحابها من التأثير على سلوكيات الأفراد وإبراز ممارسات شملت صداها مجتمعا بأسره .

لا يمكن أن يكون كتاب " محدد السنان " مجرد مصدر أولي للمعلومات فحسب بل تتجاوز محتوياته هذا التصنيف من كونه عملا فكريا في عصر المناظرات و تضاربات الآراء بين العلماء و لأنه عصارة محطة تاريخية محددة بمعطى زمني خلال القرنين السادس عشر و السابع عشر ميلاديين فإنه يحيلنا إذن إلى تعميق البحث أكثر في العادات الفيزيولوجية والحركية لسلوك اجتماعي معين.

فلا مناص من أن التدخين ظاهرة سلوكية اجتماعية قبل أن تكون ظاهرة تاريخية. لهذا السبب فإننا قلما نجد دراسات تاريخية تحدثت عنه في هذه الفترة عدا تلك المعنونة ب" رسوم التبغ في العهد العثماني " لصاحبها محمد عقل[10] إلا أن دارسها حصرها في مجال جغرافي محدد (المشرق العربي) ونفتقد كثيرا إلى دراسات مغاربية تتناول هذا الموضوع بصفته تقليد سلوكي جديد أدخل على المجتمع الجزائري وخاصة القسنطيني. أما بعض المصادر الأخرى التي تطرقت للموضوع تدرسها دراسة دينية مثل الأجهوري المالكي في رسالته الموجهة إلى طلاب السودان و الموسومة ب" غاية البيان كل مايغيب العقل من الدخان". غير أن ابن الفكون يتميز في رسالته هذه عن بقية الكتابات التي كتبت في شأن الموضوع من كونه خص هذه الظاهرة بذكر أسباب تأليف الكتاب حيث ورد في المخطوط العبارة التالية" أما بعد فقد دهمت بلية وقعت في البلاد وسرى سمها في الخاص و الباد و انتحلت مذهبا في الأقطار و توارثتها عن سفلتها الأشرار"[11]

وبما أن من أهم شروط التاريخ هو البحث و الإستفسار و الإهتمام بنشاطات البشر نجد أن ابن الفكون يهتم في كتابه هذا بهذه النشاطات و السلوكيات التي تحدد ممارسات اجتماعية تكشف عن تاريخية ظاهرة ما.

تعريف التدخين: رصد الظاهرة الإجتماعية بين القرنين 16 و 17 الميلاديين من خلال مخطوط محدد السنان

يستهل ابن الفكون مخطوطه الخاص بالدخان بالتعريف بهذه الظاهرة الإجتماعية الغريبة وذكر سبب تأليف كتابه الذي جاء لدحض أدلة العلماء الذين أحلوا هذه الآفة وأطلق عليها اسم البلية بسبب حكم الحلال الذي أصبح معروفا بين الناس من أجل تناولها أو شربها خاصة تلك الفتاوى التي ظهرت بمصر والتي أجازت شرب هذه المادة، في هذا السياق يقدم ابن الفكون أراء في إباحة الدخان فيقول: " سئل الأجهوري من علماء المالكية بالقاهرة المحمية، من علماء العصر عن حكم الدخان فأجاب الدخان المذكور ليس مسكر قطعا لأن المسكر ما غيب العقل..."[12] ولا يكتفي ابن الفكون بعرض هذه الفتوى بل يأخذ منها موقفا معارضا. و يرفض ما ذهب إليه العالم المصري الشهير الأجهوري مبينا بالحجج و البراهين حرمتها ومضارها، وهي من العادات السيئة التي بدأت تنتشر في عصره.

كما أن الفكون يعطينا صورة يصف فيها جلسات التدخين حين كان يجتمع الناس وفي وسطهم آلة التدخين يتداولون استنشاق دخانها وهي المعروفة عند المشارقة باسم الشيشة.

و أورد في مخطوطه اسم النبتة المستخدمة في عملية التدخين وهي جوزة الطيب، ويضاف إليها النفة أو الشمة[13] فالتدخين في المؤلفات التي ذكرناها يحيل إلى التصورات التي تمثلتها كتاباتهم برؤى متعددة ويوضح صاحب "محدد السنان " أن الأصل في استعمال كلمة " إخوان الدخان" جاءت لتتمة تسمية مخطوطه إذ يعود إلى الأنبوبة التي كان

---

[10]- مجلة الرسالة، المعهد الأكاديمي لإعداد المعلمين العرب عدد، 14\2006

[11]- ابن الفكون: محدد السنان، ورقة01

[12]- نفس المصدر، ورقة02.

[13]- أنظر حسين بوخلوة، عبد الكريم الفكون القسنطيني، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في تاريخ الحضارة الإسلامية،جامعة وهران، 2009/2008، ص106

يتداول على امتصاصها عامة الشباب في مجالسهم والتي هي بمثابة الرضاع ولهذا سماهم اخوان الدخان إشارة إلى تراضعهم تلك الأنبوبة حيث وصف ابن الفكون تلك المجالس قائلا أنهم كانوا يتخذون غناءا لهم لرمي ما بالحلق من الأخلاط البلغمية وغيرها[14]

إن هذه المعالجة الفقهية تعكس بوضوح الاعتقادات الشعبية بالمجتمع الجزائري التي لعبت دورا هاما في تسيير حياته حيث أنها مرتبطة بعدة أبعاد تاريخية، دينية، فلسفية و التي تدل على غياب الوعي في الأوساط الشعبية آنذاك و الذي سيطرت عليه السلوكيات الجديدة و على نمط تفكيره وتعامله مع البيئة والظواهر المحيطة به.

إذ ينتقل ابن الفكون في خاتمة كتابه إلى استعراض مكانة العلماء الاجتماعية بإيجاز شديد ورصد المتغيرات والثوابت في هذه المرحلة حيث أشار إلى منابذة القسنطينيين العلم و أهله و الإستهزاء بهم وكانت تلك الأوضاع تدل على الإنحطاط الثقافي بسبب القمع والتهميش الذي تعرض له العلماء إذ قام رجال قسنطينة بدون منازع في محاربة ومقاومة العلماء و الوشي بهم إلى الأمراء[15] حيث قال عنهم ابن الفكون : " تخيل الناس أن من تشبه بالعلماء و بالفقهاء فقيه، هيهات، هيهات، هذه ترهات يقول أحدهم مسالتين أو إلى باب المسح على الخفين ثم يلبس عمامة ثمينة ويضم على عصا يمينه ويقبل على هذه الدنيا المهينة، ويفتي بالجهالة ويحكم بالرذالة"[16]

إن هذا الإستعراض يؤكد أن الذهنية الجزائرية في القرنين السادس عشر و السابع عشر كانت تتسم بسيادة الجمود الفكري و الركود الحضاري الذي دفع هؤلاء العلماء إلى الهجرة و ظهور ما يسمى أشباه العلماء.

خصائص الكتابة التاريخية عند ابن الفكون من خلال مخطوط محدد السنان

إن منهجية الكتابة التاريخية عند ابن الفكون في نقل الوقائع شبيهة بطريقة ابن الأثير حيث كان ابن الاثير في كتابه محللاً وناقداً بصيراً وليس فقط ناقل أخبار، كما اتبع طريقة ابن الجوزي في ذكر الأخبار العلمية والثقافية والاهتمام بالظواهر الخارقة إذ ينطبق عليه المنهج النقدي التاريخي ذلك أن له حس ناقد ولمحنا ذلك في مخطوطه الذي تعاطى فيه الأدب من خلال القصائد الشعرية التي وردت في المخطوط وهو يثبت قصيدة السوسي التي انتقد فيها شرب الدخان منها قوله:

فاتقوا مولاكم ولتصلوا قرباكم***ولاتميلوا للبغا ولا تمصوا التبغا[17]

فمن هذه الناحية قد أرخ للحياة الإجتماعية و السلوكية في الجزائر العثمانية، غير أن الموضوعات التي وردت في المخطوط بقيت محصورة فقط على "ظاهرة التدخين" التي اعتمد فيها على سرد الوقائع و الإخبار كما استعمل المنهج الوصفي ووظفه في صياغة نصوصه التاريخية، إذ يقول وهو يصف الملاهي التي كانت منتشرة في تلك الفترة " بنى لها السفهاء البناءات، ضاهوا بها حانات الخمور وأعطوا لها ما استطاعوا من آلات اللهو و الطرب و المزامير التي قامت الأدلة بتحريم سماعها، فضلا عن حضور موطنها مع ماينضاف إلى ذلك من مردة الشباب، والغناء المتلف للألباب وربما صار لأصحابها حضوة على أهل خانات الخمور، بكثرة مايدفعون لهم من الدراهم فترى تلك الأماكن مزخرفة مشيدة بالجيار، مملوءة بأنواع الفسقة الفجار، وقد زينوها بأنواع الزينة، وفرشوها بأنواع من الفرش الثمينة، وربما عطلت المساجد بسببها وخرجت بفتنة عامريها"[18]

---

[14]- ابن الفكون: محدد السنان، ورقة 41-42.

[15]- الفكون : محدد السنان، ورقة 49

[16]- نفس المصدر، ورقة 51-53

[17]- الفكون: محدد السنان، ورقة11.

[18]- الفكون، محدد السنان، ورقة38

من ذلك كله نستخلص أن الكتابة التاريخية عند ابن الفكون من خلال المخطوط (محدد السنان) قامت على دراسة الظروف الاجتماعية للعصر الذي ينتمي اليه العالم. وقد كان وسيلتنا لفهم التاريخ الإجتماعي لتلك الفترة، وتفسير خصائصه ، وغوامضه، فكتابة هذا المخطوط جاءت نتاج ظروف سياسية واجتماعية تأثر بها ابن الفكون .

خلاصة

تسلط كتابات الفكون التاريخية الضوء على واقع الحياة الإجتماعية اليومية لقسنطينة العثمانية من القرن السادس عشر- السابع عشر للميلاد، من خلال عرض تاريخي شامل ومبسط، يتجاوز التاريخ التقليدي العام، ليقدم صورة متكاملة للحركة الاجتماعية، على اعتبار أن هذا المخطوط يرصد بيئة بشرية وبنية اجتماعية متشابهة في أوضاعها مع البيئة المشرقية.

لقد فرضت علينا النظرة الإجمالية للتاريخ المحلي للجزائر العثمانية التركيز في دراستنا على خصائص المنهج الذي استعمله ابن الفكون ، من حيث رصده للأحوال الإجتماعية و نقده للمسائل الفقهية و تحليله للقصائد الشعرية من خلال " محدد السنان" ، وما يرتبط بها من حكم وعبر، فأوجبت علينا هذه المقاربة تحديد خصوصية الوثيقة المدروسة من طرفنا إذ يمكن أن نصنف في ضوء ما قدمناه كتابات ابن الفكون ضمن التاريخ المركب لمجتمع مركب من حيث كونه جمع في رصده للذهنية الجزائرية وسيكولوجية المجتمع القسنطيني المحلي في تلك الفترة بين مجالات عديدة تاريخ، أدب، فقه، شعر فتجاوز السرد القائم على الوقائع السياسية وهي نفس المنهجية التي نادى بها رواد مدرسة الحوليات التي ظهرت مع القرن19 م.

وارتكازا منا على هذه المعايير النظرية والعملية ندعو الدارسين إلى استغلال وتوظيف حصيلة هذه المخطوطات في مجال البحث التاريخي وإعطاءها بعد تاريخي زمني وإعادة تصنيفها من جديد وذلك بإخراجها من المجال المغلق الذي خصصت له والتمعن في المتغيرات التي جاءت بها المسائل الفقهية و الدينية من اجل إدراك الظواهر ذات المدى الطويل و التعاطي معها في إطار إستيقاء معطيات في غاية الأهمية منها حول شتى الظواهر الاجتماعية بالجزائر العثمانية.